علاقتنا مع الغرب
بين الدعوة إلى الحوار وواقع الصراع
«من طرف واحد»

د.طه جابر العلواني

حوار الحضارات :

«الحوار» مفهوم بناه القرآن المجيد-أولا- في حضارتنا، وغرسه في تصورنا وفي رؤيتنا الكليَّة، وجعله جزءًا من بنائنا العقليِّ والنفسيِّ، بحيث لم يعد ممكنًا تصور الاستغناء عنه في أي جانب من جوانب الفكر والتصور والسلوك.

و«المحاورة» والحوار: المراجعة في الكلام، ومنه قول عنترة:

لَوْ كَانَ يَعْلَمُ مَا المحَاوَرَةَ اشْتَكَى *** وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمِي

فكأنَّ موضوع التحاور يظل مترددًا بين المتحاورين حتى ينتهيا فيه إلى اتفاق. ولإن «العقل» إذا رجع إليه يحسم تلك الحيرة، فلذلك قيل للعقل «أحور»[١]، وسيأتي مزيد توضيح له.

أما «الحضارات» فهي جمع «حضارة»، وللحضارة معنيان؛ معنى لغوي وآخر اصطلاحي.

تعريف الحضارة لغة :

فالحضارة-بكسر الحاء وفتحها-تعني الإقامة في الحضر، وكل مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[٢]. وأورد صاحب القاموس المحيط أن معناها ضد «غاب»، والحاضرة والحضارة «ويفتح» خلاف البادية[٣]. وجاء في لسان العرب مجموعة المعاني التالية :

الحضور نقيض المغيب والغيبة. أي «عنده»، نقول : كنا بحضرة ماء، والحضرة: قرب الشيء، تقول: كنت بحضرة الدار. والحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر. الحاضرة : الحي العظيم[٤].

---

[١]- راجع : المفردات في غريب القرآن / راغب الأصفهاني.-مادة «حور»، وتاج العروس شرح القاموس، والمصباح المنير، ومختار الصحاح، والتعريفات للجرجاني.

[٢]- لسان العرب / ابن منظور الأفريقي.-مادة «حضر».

[٣]- في فلسفة الحضارة الإسكندرية / أحمد محمود صبحي.-مؤسسة الثقافة الجامعية، [د. ت.].-ص ٣.

[٤]-المرجع السابق.-ص ٣.

د.طه جابر العلواني

هذا في اللغة العربية، وأما في اللغة الإنجليزية فكلمة حضارة «Civilization» مشتقة من كلمة «Civilas» بمعنى مساكن المدينة أو من «Civis» بمعنى مساكن المدينة أو من «Civilis» بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة حيث تقوم الحياة الحضرية عادة في المدن[٥].

ويستخدم بعض العلماء في مقابل كلمة حضارة كلمة «Culture» التي تعرف في العربية بلفظ «الثقافة». وهذا الأخير من ناحية اشتقاقه اللغوي مأخوذ من اللاتينية، ويراد به إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال، ومن هنا قالوا «Agriculture»؛ أي إصلاح الأرض وزراعتها. أي أن الثقافة فن تهذيب العقل، ومن ثَمَّ فإن لفظ «Culture» يفيد طريقة شعب ما في الحياة، ومجموعة أنظمته، وكذلك نظرته إلى الحياة والكون[٦].

تعريف الحضارة اصطلاحًا :

ظهرت تعريفات متعددة ومتنوعة لـ«ظاهرة الحضارة»، وصبغت هذه التعاريف بصبغة التخصص، وتأثرت بزاوية التناول التي يعتمدها الباحث في دراسته، فظهرت للحضارة تعاريف أنثروبولوجية وفلسفية وتاريخية وحضارية. وبنيت مناهج لدراسة الحضارة ؛ منها المنهج الوصفي ومنها التاريخي السردي، ومنها المنهج التحليلي والوظيفي، وبعضها اتَّسم بالنقد ومحاولة التركيب. وأما على مستوى التقويم الفكريِّ فهناك تعاريف ولدت ضمن إطار الوعي العقدي الغربي، وأخرى صيغت استجابة للنموذج الكوني التوحيدي[٧].

ذهب «و.ل. ديورانت» المؤرخ والمفكر الأمريكي صاحب موسوعة «قصة الحضارة» إلى أن الحضارة هي : «نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي. والحضارة تتألف من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق»[٨].

د. طه جابر العلواني

---

[٥] – ينظر في ذلك : في فلسفة الحضارة.–مرجع سابق، يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة، بيروت، المكتبة العصرية، ط ٢،١٩٧٣م. أسس مفهوم الحضارة في الإسلام / سليمان الخطيب. –ط. ١.–القاهرة : الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها / عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني. –ط. ٢. –بيروت : دار القلم، ١٩٨٠م، قانون الحضارة في ضوء الخصائص المعرفية للرسالة الخاتمة / عبدالعزيز برغوث.–رسالة ماجستير، ١٩٩٥.

[٦] -قصة الحضارة / ول ديورانت.–جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م، ٤/١.

[٧] -فلسفة الحضارة / ألبرت شفيتزر. –القاهرة : مطبعة مصر، [د. ت.]. –ص. ٣٥-٣٧.

[٨] – نقلا عن فلسفة الحضارة. –مرجع سابق.–ص. ٢٦٧.

ويعرفها ألبرت شفيتزر بأنها: «التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء».

ويعزو آرنولد توينبي في كتابه «دراسة التاريخ» جوهر الحضارة إلى الدين، ويرى أنَّها «حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي، وهي حركة صاعدة وليست وقائع ثابتة وجامدة، إنَّها رحلة حياتية مستمرة لا تقف على ميناء ما»[٩].

هذا بالنسبة لبعض المفكرين الغربيين. وأما بالنسبة لعلماء المسلمين فلهم كذلك تعاريف متنوعة نذكر منها :

تعريف ابن خلدون الحضارة بأنَّها: «نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرك والبعد عن الخير ... فلتعلم أنَّ الحضارة في العمران أيضًا كذلك ؛ لإنه غاية لا مزيد وراءها»[١٠]

وقال أيضًا: "... والحضارة-كما علمت-هي التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنِّق من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الإنية، وسائر أحوال المنزل. وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كبيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها، وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعته طاقة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها : أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها ..."[١١]

"وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها"[١٢].

د. طه جابر العلواني

[٩]-مالك بن نبي.-آفاق جزائرية. – ط. ٢.-القهرة : مكتبة عمار، ١٩٧١م، ص. ٣٨. وهذا فيه ما في تعريف ابن خلدون.

[١٠]-المقدمة / عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ؛ تحقيق علي عبدالواحد وافي. –ط. ٣.-القاهرة : دار نهضة مصر، [د. ت.]. –ص. ٢٠٩

[١١]– المقدمة—مرجع سابق.-ص. ٤٧٥٨، ٨٨٨ ونحن نخالف ابن خلدون بالتفريق بين «العمران» و«الحضارة». فإنَّ «العمران» عندنا حضارة تلاحظ القيم الإلهية الثابتة التي من أجلها خلق الله البشر واستخلفهم واستعمرهم الأرض؛ ولذلك جعلناه ثالث القيم الحاكمة: التوحيد والتزكية والعمران فالتوحيد حق الله على العباد، والتزكية أهم مؤهلات الاستخلاف، والعمران قوام الأرض وحقها وحياتها، وبدونها تكون الأرض مواتًا.

[١٢]– نقلا عن مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية. –ص. ١٧. تعريف المودودي قريب من تعريف الشهيد سيد قطب، ويقترب جدًّا من مفهومنا في «العمران».

ويقول فيها مالك بن نبي : "إنها مجموع الشروط الأخلاقية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده-في كل طور من أطوار وجوده؛ منذ الطفولة إلى الشيخوخة-المساعدة الضرورية له"[١٣].

وأما سيد قطب فيقول بأن : «الإسلام هو الحضارة»، يُضيف موضحًا الأسس التي تقوم عليها هذه الحضارة، وهي : «العبودية لله وحده، والتجمع على آصرة العقيدة واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم والإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته ... وحرمة الأسرة، والخلافة في الأرض على عهد الله وشروطه، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة»[١٤].

ويذهب أبوالأعلى المودودي إلى أن الحضارة هي : «مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله- سبحانه وتعالى-لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان».

حوار بين من ومن ؟

الحوار المقترح هو حوار بين «الحضارة الإسلامية العربية» وبين «الحضارة الغربية» المهيمنة على عالم اليوم. وحين نقول : «الحضارة الإسلامية العربية» لإن هذه الحضارة قد امتلكت المقومات الحضارية قبل نشأتها الأولى وأثناء بنائها وصيرورتها، واحتوت على خصائصها العمرانية-التي سنلمّح إن شاء الله إلى بعضها-بذلك التداخل المتميز بين العربية والإسلام الذي جعل منها حضارة تآلف لا تدابر، وحضارة احتواء واستقطاب دون تسلط، وحضارة جمع دون دمج أو هيمنة، وحضارة سلام وأمن لا استعلاء فيها ولا استقواء، وحضارة إصلاح وعمران لا تخريب فيها ولا إفساد، وهي تؤمن للمنتمين إليها كرامتهم دون النظر إلى أي فوارق ؛ لإنها منذ البداية وضعت سائر الفوارق في إطار التنوع الداعي إلى التعارف والتآلف حتى صارت حضارة عمرانية عديمة النظير. فهي حضارة بنيت على «التوحيد» فكان التوحيد جوهرها وأساسها، ومن منطلق التوحيد توجهت نحو «الحقيقة الذاتية للإنسان»[١٥] فاعتبرت الإنسان-بوصفه إنسانًا مجردًا عن كل وصف لاحق لإنسانيته-كفؤًا للإنسان، وهو «بإنسانيته» مركز الكون والمستخلف في الأرض والمكلف بحمل أمانة العمران فيها، الذي سُخِّرَ الكون كله له، ومكّنه

---

[١٣]- روح الحضارة الإسلامية / محمد الطاهر بن عاشور. -ص. ١٩.

[١٤]- وهذه-كلها- من مقومات الحضارة المرتبطة بالقيم، ومن أدواتها ووسائلها في الوقت ذاته، وبذلك يكون ما أراده ابن عاشور بالحضارة هو ما أسميناه بـ«العمران» ويمكن تسميته بـ«التمدن» كذلك مع ملاحظة الارتباط بالقيم.

[١٥]- روح الحضارة الإسلامية / ابن عاشور. -ص. ٣٩.

الخالق العظيم بذلك من الوفاء بالعهد والقيام بمهمة الاستخلاف، وحمل أمانة العمران والاختيار. فالحقائق كلها المتصلة بالمادة وبما ورائها هي في متناوله، يستطيع الوصول إليها بمداركه العديدة ووسائله المتنوعة، فهي حضارة عمرانية إنسانية.

إن «التوحيد» و«التزكية» باعتبارهما أعلى القيم الحاكمة التي جاء القرآن المجيد بها–قد قادا إلى إيجاد إنسان رسائلي قد اكتسب وضعًا منسجمًا مع ذاته، جعله آمنا على نفسه، مدركًا لدوره، عالما بغايات وجوده، مطمئنًا إلى رزقه الحسن، وإلى أنَّ ما ينفقه سوف يحصل له على البدائل، فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، ويأمر بالعدل ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النحل:٧٥-٧٦)، وهو على صراط مستقيم يسلكه في مسيرة مباركة لتحقيق «العمران» باعتباره القيمة الإسلامية العليا الثالثة التي تقف بجانب التوحيد والتزكية؛ فالتوحيد حق الله على العباد الذي ينعكس على مختلف جوانب النشاط الإنساني بالانسجام والتوافق، وتحقيق الأمن مع النفس ومع الغير، والتأليف بين الإنسان والكون، وإيقاظ الفطرة الإنسانية السويَّة، وإنماء القدرة على النظر العقلي[١٦].

و«التزكية» مؤهل الإنسان الأساسي لتحقيق العمران وبناء الحضارة، فبدون التزكية لا يتحقق فلاح ولا يحصل نجاح، ولا تنبثق حضارة حقيقية، ولا يقوم بناء. وأما «العمران» فهو حق الطبيعة التي هي ميدان العمران، ومجال الفعل الإنساني الحضاري وغيره.

وحضارتنا «الإسلامية العربية» بهذه القيم العليا وبانعكاساتها على الإنسان–بمدركاته ووسائل إدراكه، وبتأثيرها على غاياته ومقاصده ووعيه وسلوكه وتكوينه العقلي والنفسي– تفارق سائر الحضارات الأخرى التي عرفتها البشرية، خاصة تلك الحضارات ذات المضمون العرقيِّ أو العنصريِّ والقوميِّ؛ لإنها– كلها– تنشأ حين تنشأ في صراع ولا تنمو ولا تزدهر–إن هي ازدهرت– إلا في غمار الصراع لتحقق

---

[١٦]– أطلق المعتزلة على مخالفيهم ذلك، فكانوا يصفون بها الفرق المنتقدة لهم التي تلقبهم بـ«المعتزلة» بدلا من «أهل العدل والتوحيد»، وهو اللقب الذي اختاروه لإنفسهم، وشاعت العبارة الأولى بينهم بحيث نجدها في كتب عامة أصولييهم عندما يناقشون المسائل المختلف فيها. وأكثر الجاحظ في كتبه من ترديد ذلك ، خاصة في كتابه «الحيوان». راجع كتاب محمد كرد على «أمراء البيان» في ترجمته للجاحظ، ٢ / ٢٩٣. ومع ما في العبارة من قسوة فإنها عبارة صادقة في وصف حالة الأمة اليوم.

د.طه جابر العلواني

تسلط الجماعة العرقيَّة أو العنصريَّة أو القوميَّة وعلومها في الأرض، وهيمنتها على مَنْ عداها، حتى ولو اقتضى ذلك إهدار حقوق الآخرين وتدميرهم إذا لزم الأمر.

وقد يقول قائل : لماذا الإصرار على وصف حضارتنا بـ«العربية» إضافة إلى «الإسلامية» ؟ ولمثل هذا السائل نقول : إن العربية والعروبة–في نظرنا–إطار لمجموعة من القيم الثقافية تتخذ من اللغة العربية مظهرًا خارجيًّا لها يعكس تلك القيم الثقافية، ويُعبِّر عنها، ويحتضن مفاهيمها ومصطلحاتها ومنطقها. ولقد واكبت العربية الإسلام في انتشاره ؛ فسارت معه حيث سار–تقريبًا–ودخلت معه حيث دخل–بنسب مختلفة–وصارت الوسيلة الأساس في تعبير الإسلام عن نفسه وقيمه، كما صار الإسلام مضمونها ومدلولها، ومعناها ومغزاها منذ أن بدأ نزول القرآن المجيد بها.

والإسلام–باعتباره مضمونًا–لا يمكن أن يقف عند حدود الأوعية اللغوية، إذ هو أوسع منها وأيسر في انطلاقه واستيعابه وتجاوزه، ولذلك فإنه بعد استيعابه لمنطقة «التجوال الإبراهيمي»، وضمه الجزيرة العربية، وجعله الأميِّين العرب أهل كتاب، تجاوزهم بعالميته إلى شعوب أميَّة أخرى تمهيدًا لانطلاقه باتجاه العلمية الشاملة. وهنا استطاع القرآن الكريم حمل العربية والإسلام معًا لينطلق بهما في العالم الفسيح، وإذا بالشعوب الأميَّة كلها من عرب وكرد وفرس وبربر وهنود تقبل على الإسلام وتحتضن القرآن، وتأخذ من العربية قدرًا يجعلها قادرة على قراءة القرآن والاهتداء بهديه، يتجاوز هذا القدر أحيانًا تلك الحدود ليخترق لغات تلك الشعوب بنسب مختلفة، أو ليكون لغة النخبة الثقافية، فتكونت دائرة أوسع من الدائرة العربية، وهي الدائرة التي عرفت فيما بعد بـ«دار الإسلام»، ويطلق عليها البعض اليوم «العالم الإسلامي» الذي أوجد القرآن والعربية–التي نطقت بها بين أقطاره المشتركات والروابط ووسائل التجانس ومقومات العمران والتمدن والحضارة–ما جعل منها «أمة» بمعنى الكلمة بعد أن منحها سائر مقومات الأمة. ولم يكن عسيرًا–بعد أن قامت الأمة–أن تنبثق تلك الحضارة الزاهرة–الحضارة العربية الإسلامية–التي أعطت للبشرية كلها لا للمسلمين وحدهم ولا للعرب بمفردهم–تلك القيم العليا الحاكمة التي كانت البشرية–ولاتزال–في احتياج إليها. فلولاها لما تمكن الإنسان من تكوين الإنسان المؤهل لتحقيق العمران، أي الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة. وهذه الرؤية الكلية تعالج لدى الإنسان ما كان يُسميه فلاسفة الأمس بـ«العقدة الكبرى»، ويُسميها علماء وفلاسفة اليوم بالأجوبة عن «الأسئلة النهائية»، وهذه الأسئلة النهائية أو العقدة الكبرى إذا لم يصل الإنسان فيها إلى برد اليقين والجواب

الشافي المطابق للوجود الخارجي وللوجود الذهني كذلك، فإن الإنسان لن يكون قادرًا على الإنطلاق بكل طاقاته في هذه الحياة، ولن يكون قادرًا على إدراك حقيقة فعله وقيمته وأثره ومآله، ولن يكون قادرًا على تصور قيمة نفسه وإطلاقية إنسانيته، وإدراك انتمائه وامتداده–عبر الزمان والمكان–ليتصل بأبيه آدم وأصله، وليُدرك–بعد ذلك–عهده مع الله في عالم أمره : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٢–١٧٣) ويدرك غاية استخلافه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة :٣٠) وائتمانه على الأرض وما فيها وما عليها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢)، وابتلائه : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢).

هذه كلها أمور لا يمكن أن يصل الإنسان فيها إلى التصور الدقيق بدون الإجابة على سائر الأسئلة المتعلقة بـ«الله والإنسان والعالم». إن الإجابة عن هذه الأسئلة النهائية هي التي تُمكِّن الإنسان من صناعة عالم غيبه، وهو أمر في غاية الأهمية لتحقيق الاستقامة العقلية والنفسية ثم السلوكية له، ومساعدته على بناء شخصيته العمرانية، ومن ثم تحقيق الفعل العمراني.

الأفول الحضاري الإسلامي والحوار :

على ضوء هذه القيم التي ذكرناها تم تكوين الفرد المسلم تكوينًا صحيحًا من فجر الإسلام وبدايات ظهوره في مكة المكرمة، ثم في تكوين المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة، وبه بدأ تشكيل الأمة وظهورها، ولم يكن لهذا المجتمع الأول ما يمكن تسميته بثقافة أو حضارة أو عمران بمعانيها المعروفة اليوم، لكن الإسلام–بما أحدثه من تغيير في عقولهم وأنفسهم وفي أفرادهم ومجتمعهم–قد وضع الأسس بما أحدثه من تغيير في عقولهم وأنفسهم وفي أفرادهم ومجتمعهم قد وضع الأسس منذ ذلك الوقت لانبثاق الحضارة والعمران الإسلامي، ولظهور الثقافة الإسلامية. فلولا التكون الفرديّ في مكة والبناء

د. طه جابر العلواني

الاجتماعيّ في المدينة لما برزت تلك الحضارة السامقة، ولا قام ذلك العمران الذي تفيَّأ الناس ظلاله في دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس والقيروان وقرطبة وخراسان وسمرقند واستانبول وغيرها. لكن هذه الحضارة السامقة والعمران الشامخ قد بدأت مسيرة التراجع بعد تلك الانطلاقة عندما افترق القرآن والسلطان، فلم يعد القرآن مصدر تربية الأفراد الأول ؛ عقلا ونفسًا وخلقًا وسلوكًا، وبذلك لم يعد ممكنًا تكوين المجتمع به، ولا إقامة البنيان الثقافي عليه.

لقد كان العامل التربوي القرآني هو الذي كوَّن الفرد في البدء ؛ عقلا ونفسًا وخلقًا وسلوكًا، فكان ذلك العامل التربوي هو الأساس المتين في توليد الحضارة وقيام العمران وتكوين المجتمع الأمثل، والتمهيد للثقافة لتتناول عناصر المعرفة المطلوبة للبناء الحضاري وتؤلف بينها، فقامت الحضارة على ذلك الأساس المتين، ثم تراجعت وذوت فيها الثقافة، وانتشرت فيها البدع، وسادت فيها «عقلية العوام» وطبيعة القطيع، و«نفسية العبيد». ولقد استمرت الحالة بالتدهور حتى لم تعد محاولات التجديد تحقق من أهدافها شيئًا حتى تفترسه تلك الآفات الراسخة، فأعضل الداء وعزَّ الدواء، وطمع فيها من لا يدفع الأذى عن نفسه، وما من مُصلح من المصلحين عبر التاريخ إلا وصف من أمراض الأمة ما وصف، حتى بلغ الحال في زماننا هذا مستوى يُرشِّح الأمة إلى الدخول في «سُنَّة الاستبدال».

أَحِوَار أم صراع ؟

حين رشَّح بعض الكاتبين الغربيين «الحضارة الإسلامية» الآفلة للدخول في صراع مع «الحضارة الغربية» الصاعدة المتعالية اغتر بذلك الجاهلون، وتوهَّموا أن الأمر جدٌّ، وليس من قبيل بالونات الاختبار، أو الحديث الهازل وإظهاره بمظهر الحديث الجاد، فأخذ البعض يُنادي باستبدال «الصراع» بـ«الحوار»، وكأنه يريد أن يقول لذلك الغربي المتعالي المتغطرس : لا داعي للصراع، فأنا أُفضِّل الحوار عليه. وظنَّ ذلك المخذول أن الغربيَّ لم يدرك بعد أنه قد انتهى منذ أمد طويل وذهبت ريحه، حتى أنه لم يعد–في نظر الغربيِّ–إلا دمية يعبث بها، وفي أحسن أحواله هو أشبه بكيس الملاكمة الذي يتمرن الملاكمون على الضرب فيه.

لذلك فقد كان مجرد وضع المسلمين في مقابلة الغرب أمرًا لافتًا للنظر، ولعلَّ مَنْ وضع المسلمين في مقابلة الغرب كان يتصور–صوابًا أو خطأً–افتراض تطابق تام بين الإسلام والمسلمين الذين يدينون

به، أو يحملون اسمه بحكم الاعتقاد والتدين، أو بحكم الجغرافيا أو التاريخ، أو بالنظر لكليهما معًا، كما يفترض ذلك ثباتًا في العلاقة بين الإسلام والمسلمين عبر التاريخ، بحيث لم يتوقع تصور اختلاف جذري أو ذي أهمية تُذكر بين الإسلام والمسلمين، وهذا أمر فيه نظر كبير ؛ فليس من اليسير قبوله على إطلاقه؛ لإن التاريخ قد شهد حالات فصام عديدة بين الإسلام والمسلمين على مستويات مختلفة. وتاريخنا الحديث من تلك الفترات التي يتعذَّر فيها ادعاء التطابق بين الإسلام والمسلمين، وهنا يفرض علينا البحث أن نحدد بدقة مرادنا بالإسلام ؛ أهو الدين الذي جاء به إبراهيم أبوالأنبياء، وتكامل على أيدي الأنبياء من بعده من ذريَّة إسحاق وإسماعيل، حتى خُتم واستوت دعائمه وقوائمه وتمَّت كلماته على يدي خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر النبيين من قبله وآلهم وأتباعهم أجمعين ؟ أم هو تلك المنطقة التي عُرفت تاريخيًّا بمنطقة «التجوال الإبراهيمي» التي عُرفت فيما بعد بدار الإسلام ؟ أو هو تلك الكتلة البشرية الممتدة على محور طنجة—جاكارتا وما يلحق بها من أقليات تعيش خارج مواقع تلك الكتلة ؟ أم هو تلك الشعوب الأميَّة التي ارتقت بها رسالة محمد بن عبد الله—صلى الله عليه وآله وسلم—إلى مستوى الشعوب الكتابية فتجاوزت أميَّتها، مثل العرب والفرس والكرد والبربر والهنود والوثنيين من الروم ومَنْ إليهم ؟ كل ذلك وارد وممكن ويحتمله المصطلح، على سبيل الحقيقة في بعضه وعلى سبيل المجاز في البعض الآخر، ولكن من الواضح أن المقصود في سائر أدبيات عصرنا خاصة حين تتم المقابلة بين الإسلام والغرب—هو أن المسلمين—الذين تحوَّلوا قبل وبعد عام ١٩٢٤م من القرن الماضي إلى كيانات مستقلة تجاوزت خمسين كيانًا—أصبحوا هم المرادون بهذه الثنائية «الإسلام والغرب».

الغرب والحوار :

تفترض العناوين التي يتداولها المتكلمون والكاتبون تحت «حوار الحضارات» أن الحوار أو الصراع أو التعامل بكل أنواعه مع الغرب باعتباره غربًا واحدًا، وكيانًا واحدًا، وتاريخًا واحدًا، وجغرافية واحدة، ولذلك فإنَّ العقل يستدعي على الفور الصراعات الطويلة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، ثم الحروب الصليبية، ثم المسألة الشرقية، ثم الاستعمار الأوروبي الحديث، ثم سائر الصدامات والاحتكاكات التي قامت في أي جزء من بلاد المسلمين وأي جزء آخر من بلاد الغربيين؛ فذلك كله يمكن أن يُشمل

بعنوان «الشرق والغرب» أو «الإسلام والغرب»، وهذا أمر فيه من عدم الدقة والتجاوز–أو التجوّز– والتساهل الشيء الكثير.

عودة إلى الحوار في تاريخنا :

أما «الحوار» في تاريخنا فالمسلمون يفهمونه في الإطار المعرفي باعتباره بحثًا عن الحقيقة أو الصواب، وذلك بأن يكون المتحاوران قد التقيا على ذلك الهدف ؛ ألا وهو الوصول إلى الحقيقة أو الصواب، كما التقيا على التمسك بقواعد وآداب الحوار، والتزم كل منهما بالنتيجة في صالحه أو صالح محاوره الآخر، وكذلك كون الطرفين اتفقا على مرجعية معترف بها من الطرفين للرجوع إليها في حسم الاختلاف بينهما : وإلا فإنَّ الحوار يتحول إلى لجج لا ينتهي، وخصومة لا تقف عند حد ؛ ذلك الأمر الواحد الثابت الكامن، وقد يوفقون للوصول إليه وقد يخطئونه، وهم معذورون إذا أخطأوا بعد بذل الجهد المناسب، والإحساس بالقناعة والرضا من الباحث المجتهد يتأتى إذا اقتنع ببذل كل ما في طاقته مِنْ وِسْعٍ يجعله يشعر بأنه قد أصاب الحقيقة يقينًا أو غلب على الظن إصابتها بقطع النظر عن الحقيقة كما هي في الواقع ونفس الأمر وقد أسَّس القرآن المجيد للحوار وأصَّل له كما ذكرنا سابقًا واعتبره من أهم الوسائل للوصول إلى الهدى وإلى الحق، وعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيفية ممارسته، وممارسة سائر آدابه وأصوله وقواعده، ومارسه علماء الأصلين عندنا «أصول الدين وأصول الفقه»، وتوسَّعوا في ذلك حتى صار فنًّا أو علمًا من العلوم، له موضوعه ومصادره وغاياته ومسائله وموارده، وعلى دعائم هذا الفن قام علم «الجدل» وعلم «الخلافيَّات» وغيرها من تراث نعتز ونفتخر به.

وأما «الغرب» فأهل العلم والفكر فيه لم يكونوا بعيدين عن هذا التصوُّر كثيرًا، فقد عرفه تيتلر Teitler بأنه : «طريقة إقناع تشوبها الكرامة في تعامل كافة الأطراف الذين وإن اختلفت آراؤهم فإن مصلحة مشتركة تجمعهم ؛ هي البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن لعقل أن يتوصَّل إليها عبر جوٍّ من الثقة والاحترام المتبادل».

د. طه جابر العلواني

الحوار لدى السياسيين :

أما السياسيون الغربيون فلا يرون الحوار بالرؤية التي تتسم بها رؤية العلماء والمفكرين؛ فالحوار لدى السياسيين يغلب عليه مفهوم لَيِّ ذراع الخصم، واستخدام كل ما تسمح به لغة الحوار السياسية من التواء في الخطاب ولحنه وفحواه وما إليها، ولا يقتضي أن ينظر المحاور إلى مَنْ يحاوره بثقة أو باحترام، أو رغبة صادقة في الوصول إلى حلٍّ، بل يغلب عليه أن يحاول القوي الاستبداد بقدر ما يستطيع بالضعيف، وأخذ كل ما يمكن أن يؤخذ منه، مع محاولة إيجاد شعور لديه بأنه أعطى ما أعطى مختارًا، ولم يكن في الحقيقة إلا مكرهًا أُوهم بأنه مختار. هذه طبيعة الحوار بين الأقوياء والضعفاء، فهي أقرب إلى القصة القائلة بأن صيادَيْن قد قرَّرا عقد شركة بينهما في كل ما يصطادانه، فاصطاد الضعيف منهما غزالا، واصطاد القوي أرنبًا، وقرر الضعيف الالتزام بالاتفاق وأعلن الرضى بنصف الغزال الذي اصطاده ونصف الأرنب الذي اصطاده شريكه، لكن الشريك القوي قرر الاستحواذ على الغزال كله، فقال لصاحبه وهو يحاوره: إن كنت تريد الأرنب فخذه، وإن كنت تريد الغزال أو نصفه فخذ الأرنب كله ! أما الغزال فلا سبيل لك إليه كله أو نصفه. وأمام هذا التجنِّي لم يجد الضعيف بُدًّا من النزول عند رغبة الشريك القوي ؛ ذلك أن القوي يعرف ما يريد، سواء شاركه الضعيف في تلك المعرفة أم لم يشاركه فيها، وإحساسه بالقوة والاستغناء يدفعه إلى الاستبداد والطغيان، فتلك طبيعة إنسانية، وسنَّة من سنن الاجتماع : ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧) ؛ ولذلك كانت كلمة «الله أكبر» وترديدها-صباح مساء-كلمة ضرورية، لا في الإطار التعبدي وحده، بل في الإطار المعرفي كذلك وفي سائر أطر التعامل، أما من لا يؤمن بالله، أو يؤمن به ولا يؤمن أنه «الأكبر» أو يؤمن بذلك لكنه لا يؤمن باليوم الآخر، أو يؤمن به ولكن بطريقة مضطربة، فإنَّ الوسيلة الأساسية لتقليل نسبة الاستبداد والطغيان عنده أن تكون أقوى منه—على الأقل-أو أن تكون قادرًا على النيل منه.

التوازن في القوى من أهم شروط الحوار:

لا ينبغي للضعيف أن يتوهَّم أنه يكون طرفًا في حوار وهو في حالة ضعفه، فلابد له-قبل الحوار-أن يتجاوز حالة الضعف، وأن يُحقق توازنًا-ولو في حدود معينة-مع الطرف الذي يُرشح نفسه للحوار معه، فذلك «التوازن» ضروري للضعيف لبلوغ مستوى الشريك في الحوار، فإذا توازنت القوى كان هناك

د. طه جابر العلواني

مجال للحوار، أما إذا لم يتحقق–ولو قدر ضئيل من التوازن–فويل للضعيف من القوي، وويل للفقير من الغني، وويل وويل.

إن الغرب يعرف قيمة التوازن، يعرف أنه الضمانة الوحيدة للسلام ؛ سواء أكان توازن الرعب بأن تملك–باعتبارك طرفًا–ترسانة من الأسلحة ووسائل الدمار الشامل، من مثل الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية. ويعرف أنه إذا ضغط عليك فقد تلجأ إليها، إذ لديك القدرة على تصنيعها وحمايتها والمحافظة عليها واستعمالها عند الحاجة، فهنا–فقط–يقوم ما يعرف بـ«توازن النمور» أو «الأسود»، فالنمر إذا رأى نمرًا مثله أو أسدًا فإنه سرعان ما ينصرف دون مشاكل أو عراك، لكنه لا ينصرف عن حمار وحشي أو غزال طيب اللحم أو بقرة أو أرنب، خاصة إذا كان جائعًا ! ومن هنا عرف العصر الحديث مبدأ «التوازن» ؛ توازن الرعب والخوف المتبادل وسيلة للسلام، فهم يدعون إلى السلام في ذات الوقت الذي يصنعون فيه أسلحة الدمار الشامل ويسيرون فيهما معًا في وقت واحد لإيجاد حالة التوازن : توازن الردع / توازن الأسود والنمور. فهل يملك العرب والمسلمون القدرة على التوازن مع الغرب بعامة، أو مع الغرب الأمريكي بخاصة ؟ الجواب : لا. ومثل ذلك يقال عن اليابان والصين وروسيا وغيرها. ومن هنا يصبح مفهومًا قول الرئيس بوش : "إنه لا مجال لأي بلد في العالم أن يقف من حربنا على الإرهاب موقف المتفرج ؛ لإنه لم يعد هناك سوى موقفين : معنا أو مع الإرهاب"، ولذلك سارعت الجهات المختلفة–العربية والإسلامية وغيرها–وبدرجات متفاوتة إلى رفض الإرهاب وشجبه، وذلك أضعف الإيمان، أو إلى مبايعة الرئيس بوش قائدًا عالميًّا لحملة «محاربة الإرهاب» ولو دون تحديد لمفهوم الإرهاب[١٧]. ففي هذه الحالة تتراجع قضية «الحوار» وتأرز إلى جحر كما تأرز الحية إلى جحرها، وهذا ما يحدث في عالم اليوم ؛ فنحن أمام حالة عالمية تكررت في تاريخ البشرية مرتين، وهذه هي الثالثة، وهي: أن تظهر قوة بشرية واحدة تستأثر بالقطبية وقيادة العالم وتفرض قيمها على العالم كله، وهما: العالمية الهيلينية–بقيادة الإسكندر–والعالمية الرومانية. أما العالمية الإسلامية الأولى فإن تجربتها مغايرة تمامًا، فهي المرة الأولى التي لم تتكرر في التاريخ أن تقوم «الأمة القطب» فيها بفتح نسقها ليتسع للبشرية كلها إلا من أبى، وهذا النسق يعطي للجميع فرصًا متكافئة في الإنضمام إليه، ورفض ذلك إن شاء. وهذا

---

[١٧]– حتى الآن لم يصدر تعريف محدد لـ«الإرهاب» بأي لغة من لغات الأقوياء، ولم نر أحدًا منهم وضع رسمًا للإرهاب. فهو مفهوم سائل يسقطه الأقوياء على الضعفاء للبطش بهم ومحو آثارهم متمتعين بكل ما يحتاجون إليه من «شرعية دولية» و«شفافية سياسية».

طه جابر العلواني

الذي يأبى لا يسمح له بأن ينسحق، بل يعمل القطب نفسه على إقامته بجواره وتسويته به لتستمر «سُنَّة التدافع» أو حالة التوازن في أداء دورها الحيوي، فلا يسقط القطب تحت عوامل الاسترخاء والترهل، ولا تنهار الأطراف تحت عوامل الاستبداد والتحكم، فكانت المعاهدات بأنواعها–والاتفاقات أحيانًا–مقابل الجزية، وعقد الذمة—الذي يسوّي بين القوة العظمى في العالم والمتعاقدين معها–كل ذلك يحول القطب إلى مسؤول مسؤولية مباشرة عن أمن واستقرار وحماية الأطراف الأخرى، كما لو كانت جزءًا من كيان القطب ذاته.

أما الحالة الراهنة للعالم فإنها حالة فريدة وخطيرة في الوقت ذاته، وخطرها على القطب المنفرد ذاته لا يقل عن خطورته على الأطراف الأخرى في العالم، وفي مقدمته المسلمون. فهل يمكن أن يكون هناك حوار ؟ وما نتائجه ؟ وهل من بديل عنه ؟ هذه الأسئلة وغيرها تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها وإيجاد وعي كامل بحقائقها ومقاصدها.

فإذا أردنا أن نجيب بكلمة واحدة فنقول : لا ... لا يمكن أن يُقيم العرب والمسلمون–في وضعهم المتهالك هذا–حوارًا فلسطينيًّا إسرائيليًّا، ولا حوارًا عربيًّا إسرائيليًّا، ولا حوارًا عربيًّا أمريكيًّا، ولا حوارًا إسلاميًّا أمريكيًّا قبل ، ويُشعروا الآخرين أنَّهم قادرون على أن يكونوا أطراف حوار، فإن لم يفعلوا فإن الحوار–إذا صحّت تسميته أن يُعيد العرب والمسلمون بناء أنفسهم، ويخرجوا من عالم ما قبل الثورات العقلية والصناعية والتقنية ليقفوا في عالم اليوم فيمتلكوا مقدراته بذلك–إنَّما هو حوار الذئب مع الحملان، أو الثعلب مع الدجاج، ينتهي دائمًا بأكل الذئب للحمل أو الثعلب للدجاجة، ويكون الحوار مجرد فاتح شهية.

النشأة المعاصرة لفكرة حوار الحضارات :

من الصعب تحديد تاريخ دقيق لهذا الذي صار في أيامنا هذه يُسمَّى بـ«حوار الحضارات»، لكننا–بشيء من التجوز والتساهل–يمكننا أن نربط بين قيام «عصبة الأمم» وانتهائها وعجزها عن الحيلولة دون وقوع الحرب العالمية الثانية، ثم قيام «الأمم المتحدة» ونشأتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فلقد أحسَّ العالم–كله– المنتصر والمغلوب بالحاجة الماسة إلى تحقيق سلام وبناء أمن عالمي.

لقد ظنَّ «هيغل» وغيره أن فتح «نابليون» لـ«أوروبا» كان «نهاية التاريخ» وبلوغ البشرية القمة بقيادة أوروبا أو «الغرب» الذي كانت تمثله آنذاك، وأنه لم يصنع بعد ذلك التاريخ تاريخ، لكن خاب

د. طه جابر العلواني

فأل «هيغل» وغيره، فالحروب الصغيرة لم تنقطع، وفي النصف الأول من القرن العشرين وحده قامت حربان كونيتان شكَّلت كلٌّ منهما تهديدًا للعالم–كله–ولم تلبث أن نشبت–بعدها–«الحرب الباردة» التي لم تنته إلا بتفكيك الاتحاد السوفيتي. واستمرت الحروب الصغيرة ولم تتوقف، ولم تستطع الأمم المتحدة ولا غيرها إحلال الحوار محل الصراع في سائر القضايا الساخنة التي شهدها العالم، وإذا حدث شيء فإنما هي مفاوضات لا حوار.

وحين نبحث عن فكرة «الحوار» وكيف راجت في العالم الإسلامي، حتى بادر إلى تبنِّيها كثير من القادة، وروَّجت لها منظمة المؤتمر الإسلامي، ودعا إليها كثير من الأكاديميين والمفكريين، وعقدت بعض المؤتمرات حولها، نجد أنَّها راجت لإن كثيرًا من المسلمين يظنون أن خصومة الغرب لهم خصومة مبنيَّة على جهل الغرب بهم، وأن الحوار سيبني جسورًا وسوف يُعرِّف الغرب بالإسلام والمسلمين، ومن التعارف سيكون التآلف والتعاون، وينتهي الصراع، كما إنَّ البعض ظنوا أن الترويج لفكرة الحوار سيقابل الترويج لفكرة الصراع، ولعلَّه يهزمها، وكأنَّ الصراع وأفكار الصراع طارئة متحولة في الشخصية الغربية، يمكن إيقافها بذلك الشكل الساذج. وهنا لابد أن نذكِّر بأنَّ الشرط الأساسي لبدء أي حوار هو الاستعداد الدائم لدى الأطراف المتحاورة لقبول نتائج الحوار، أما حين لا يكون هذا الاستعداد متوافرًا فإن الحوار–آنذاك–يكون مجرد محاولة من الطرف الأقوى لإقناع مواطنيه وغيرهم–إن أمكن–بشرعيَّة فعله وعدالته بعد ذلك، وأنه قد أعطى لخصمه الفرص المناسبة لتلافي الصراع، ولكن ذلك الخصم عنيد–مهما كان ضعيفًا–وكان مصرًّا على موقفه، وكأن الحرب التي سيشنُّها–بعد ذلك–فرضها عليه ذلك الضعيف فرضًا، في حين أنَّ الضعيف كان يتمنى فرصة الإفلات من تلك القبضة والتخلص من مصير قاتم لا يخفى عليه. ويمكن التمثيل لهذا النوع من الحوارات بحوارات السلطة الفلسطينية مع الحكومة العبرية، وحوارات حكومة حزب البعث العراقي مع أمريكا، وغير هذا مما يطلق عليه–طمسًا للحقائق–«حوارًا». ويستطيع المراقب لهذا النوع من الحوارات أن يجسِّد الكثير من النماذج. فإذا قام بتحليلها فإنه سيكتشف الكثير من خصائص الحضارة الغربية، والفكر الذي يقود حركتها، والرؤية الكلية الكامنة وراء منظومة القيم التي تفسِّر الكثير من إجراءاتها.

نحو أبعاد معرفيَّة لحوار الحضارات :

إنَّ الحديث المكرَّر المعاد الذي يكثر تداوله في العالم الإسلامي عن حوار الحضارات، ويتنادى الناس لعقد اللقاءات والندوات حوله، وتُنادي بعض القيادات السياسية الإسلامية بالإلحاح في المطالبة به، وتكريس مبادئه، هو حوار من طرف واحد يريد أن يعطي لنفسه صفة الشريك في صناعة صياغة القرار العالمي وإعادة صياغة بناء خارطة الأرض، وكلا الأمرين لا تتوافر في العالم الإسلامي–كله– شروطهما ولا أسبابهما، ولا أي مقوم من مقومات القيام بهما، إلا إذا اعتبرنا حالة «الانفعال» وصفة «المفعول به» من تلك المقومات، وهذا ما لا يراه أحد من المنتمين إلى الدوائر الفكرية، لذلك صار الحديث عن حوار الحضارات يُمثِّل حالة بالغة التعبير عن عمق الأزمة التي يعيشها الفكر العربي والإسلامي[١٨] إضافة إلى النظم، وتتجلى هذه الأزمة في حالة التبعية الظاهرة المتمثلة في نقل الأطر النظرية الفكرية وتبنِّيها بصورة أيديولوجية، أو في التبعية الكامنة التي تتمثل في فكر المقاربات والمقارنات في القرن التاسع عشر. وجوهر الأزمة أنَّ مَنْ يحدد الإشكالات، ويُثير القضايا، ويحدد مجالات البحث والاهتمام وأولويات التفكير يقع خارج البيئة الفكرية والاجتماعية، العربية والإسلامية، ويتحرك في إطار نموذج معرفي ومعطيات اجتماعية وتاريخية، ومصالح اقتصادية وسياسية، وقيم وأهداف مختلفة–إن لم تكن متعارضة–مع تلك التي يتحرك في إطارها الباحث والمفكر العربي والمسلم، فإنها لا تلتقي معها بأي حال من الأحوال.

وقد ارتبطت قضية الحوار بين الحضارات–في طرحها الأخير–بما أُثير حول مقالة صموئيل هنتجتون[١٩] عن نفس الموضوع–التي كانت مقالة ثم تحولت إلى كتاب– وكُتب حول موضوعه–بعد ذلك–آلاف الصفحات، خاصة في الغرب، ومن ثم بدأ العقل المسلم والعربي ينشغل بهذه القضية، وبدأت تستحوذ على أولوياته دون أن يكون ذلك نابعًا من إحساس عربي إسلامي بضرورة الحوار مثلا،

د. طه جابر العلواني

---

[١٨]– انظر في الأزمة الفكرية المعاصرة : تشخيص ومقترحات علاج / طه جابر العلواني. – ط. ٢. –فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢.

[١٩]– انظر مقال صموئيل هنتجون، صراع الحضارات، نشر مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية، صيف حزيران / يونيو ١٩٩٣م. وترجم في القاهرة بعنوان: «الإسلام والغرب: آفاق الصدام»، ترجمة مجدي شرشر، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.

أو كونه ضرورة اجتماعية، أو إشكالية فكرية، أو مصلحة سياسية للمجتمعات العربية والإسلامية، ودون أن ينبع الطرح من داخل هذه المجتمعات، بل جاء من خارجها وألقي عليها، وقد حاول هذا العقل العربي المسلم أن يقدِّم إجابات عن سؤال لم يفكر فيه ولم ينبع منه، ولم يمثل إشكالية فكرية ملحة–على الأقل في المرحلة الراهنة–لهذه المجتمعات العربية الإسلامية إذا ما قيس بما يواجه هذه المجتمعات من قضايا وتحديات أخرى حتى في أذهان أصحاب بعض المبادرات في الموضوع.

وبغضِّ النظر عن موضوع هذه القضية–في إطار أولويات الاهتمام في الفكر العربي المعاصر–فإنه ينبغي التأكيد على أنَّ الاهتمام بها حاليًا يعكس حالة من ردود الأفعال، وليس الأفعال، ويعبِّر عن وضعية معينة تُصنع فيها الإشكالات خارج الحدود ويتم تصديرها. فبعد أن كانت تُقدَّم الحلول سابقة التجهيز، أصبحت الآن–ومع التطور الفكري في الوطن العربي–تقدم إلينا الإشكاليات كما هي، فننشغل بقضايا لم تكن نابعة من ذواتنا أو معبِّرة عن همومنا واهتماماتنا؛ ولذلك فإن التركيز على نقد محاولات الانشغال بهذه القضية لا ينبغي النظر إليه على أنه مصادرة للمطلوب، أو دعوة لغلق باب الحوار حول القضية، ولكنه فقط لإثارة الإنتباه إلى قضية معرفية أكثر خطورة وأهمية ينبغي التركيز عليها والتيقظ لها، وإثارة الإنتباه إليها.

وبعد هذه الملاحظة الأولية يمكن الإشارة إلى جملة نقاط :

أولا : حوار الحضارات والحوار العربي الأوربي :

في أعقاب حرب رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ م برزت فكرة الحوار العربي الأوروبي، وعقدت مجموعة من اللقاءات بين مفكرين وسياسيين عرب وأوروبيين، وصدرت عدة دراسات حول الموضوع، أهمها دراسة «روجيه غارودي» الذي دعا الغرب إلى التخلي عن غروره وغطرسته، ودعوته إلى إنشاء حوار مع الحضارات الأخرى، وبخاصة «حضارة القرآن» التي لاشك–عند غارودي–أن الحوار معها سوف يعود على الغرب وحضارته بفوائد لا تُحصى، أقلها تخليص العالم من مركزية الغرب وأبعاده الأحادية، وإخراج الغرب ذاته من سجن مركزيته التي سجن نفسه بها إلى آفاق الثقافة العالمية. واتهم غارودي الغرب بأنه قد هدم حضارات أسمى من حضارته بكثير، خاصة في علاقة تلك الحضارات بالطبيعة والمجتمع والقضايا الإلهية. واتهم غرور الغرب العرقي الذي جعله يتوهم أن منابع حضارته تكمن في الإغريقية والرومانية والنصرانية وحدها، فلم يلتفت إلى أن هذه المنابع نفسها لم تكن لتوجد لولا

د. طه جابر العلواني

البيئات الحضارية الخصبة في آسيا وأفريقيا، وأنَّ الغرب أنجب الرأسمالية والاستعمار اللذين أضرَّا بالبشرية كلها، وأكد أن التفوق الغربي لم يكن تفوُّقًا ثقافيًّا، بل هو تفوق تقني أدى إلى العدوان على الثقافات والحضارات الأخرى. وقد اعتبر غارودي أن «حوار الحضارات» المخرج الأساس للغرب لتجديد ذاته والخروج من أزماته ؛ إذ إن الحوار–من وجهة نظره–وليس الصراع هو الذي يمكن أن يولِّد مشروعًا كونيًّا ونسيجًا ثقافيًّا واجتماعيًّا جديدًا على مستوى العالم ليدخل الناس في السلم كافة.

والطريف في دعوة غارودي إلى حوار الحضارات أنه حمَّل الغرب ذاته مسؤولية تجديد نفسه وإعادة صناعة كل شيء فيه بحسب القواعد التي تنسجم مع الحضارات الأخرى. وتلته دراسة للعالم الدكتور حامد ربيع، ودراسة أخرى للدكتور أحمد صدقي الدجاني[٢٠]، وفي كلتيهما نجد دعوة مماثلة لدعوة غارودي من ناحية التأكيد على الغربيين بأن يعيدوا تجديد ما بلي أو تقادم من حضارتهم، وأن يُحسنوا فهم الآخريين ليكونوا قادرين على إنشاء حوار حضاري جاد، أو ليُصبحوا في مستوى شريك حضاري قادر على الحوار.

وقد تركَّز هدف الحوار في حينه–إضافة إلى ذلك–على قضايا سياسيَّة وحضاريَّة وفكريَّة متعددة، ولكن الدعوات الثلاثة لم تلقَ من الغرب أو من العالم الإسلامي قدرًا يُلحظ من الاهتمام إذا ما قِيس بمقدار الزخم الذي أحاط مقولة صموئيل هنتجتون ؛ وذلك لإن الطرف الأوروبي كان يقصد بالحوار أهدافًا سياسيَّة واقتصاديَّة يُنافس بها الولايات المتحدة على نفوذها في المنطقة، فتحول الحوار إلى صيغة تفاوضية ولم يعد حوارًا معرفيًّا فكريًّا حضاريًّا.

كذلك تعددت لقاءات وندوات الحوار الإسلامي المسيحي أو الإسلامي الكاثوليكي، ولم يُحطها أيضًا زخم إعلامي أو اهتمام عربي، ولم تلقَ اهتمامًا يتوازى مع أهميتها ؛ ولعل ذلك يعود بالأساس إلى عاملين أساسيين، أولهما : أن الغرب الآن يطلق مقولة «حوار الحضارات»، وهي تتضمن في جوهرها صدام وصراع الحضارات، ويُمهِّد لذلك، وقد كشفت أحداث سبتمبر عن ذلك.

---

[٢٠] – أنظر في ذلك:

– ربيع، حامد، «الحوار العربي الأوروبي واستراتيجية التعامل مع الدول الكبرى»، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.
– ربيع، حامد، «الحوار العربي الأوربي ومنطق التعامل الدولي»، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٣م.
– الدجاني، أحمد صدقي، «الحوار العربي الأوربي: وجهة نظر عربية ووثائق»، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٧٦م.
- غارودي، روجيه، «حوار الحضارات»، ترجمة: عادل العوا، الأردن، منشورات عويدات، ط ٣، ١٩٨٦م.

وثانيهما : أن حوار الحضارات–في طرحه الأخير–يتسق مع المعطيات التاريخية والسياسية والاستراتيجية للعالم الغربي بعد انتهاء الشيوعية، وبعد تطهير البيت الأوروبي من الانقسام الأيديولوجي ما بين شيوعية ورأسمالية، والتحول إلى محاولة صنع أعداء من خارج النسق الحضاري الغربي، خصوصًا في حوض حضارة الإسلام.

وهذا يؤكد مرة أخرى على أن القضية–التي قد تم طرحها–ليست فقط في غير أوانها بالنسبة لنا، وإنما أيضًا على غير وجهها وبغير مضمونها.

ثانيًا : حوار فكري أم تفاوض سياسي ؟

إنَّ مفهوم الحوار ينصرف إلى أحد معنيين، أولهما : يعني منهاجية فلسفية أساسها قرع الحجة بالحجة، واتخاذ موقف المعارضة المنطقيَّة بُغية الكشف عن الحقيقة، وقد كان هذا طابع الدراسات التي أشرنا إليها، وعلى العكس يُثير المعنى الثاني مفاهيم التفاوض السياسي الدولي التي تحكمها عناصر القوة وليس الحق، وتهدف إلى تحقيق الغلبة التي هي طريق تحقيق المصلحة–في العقل الغربي–وليس الوصول إلى الحقيقة أو تجلياتها.

ومن خلال هذين المفهومين يمكن طرح تساؤل أساسي، هو : أيُّ حوار حضاري يطلب العرب والمسلمون اليوم ؟ أهو حوار يقصد الوصول إلى الحقيقة والإنصياع لها بعد إقرارها ؟ أم هو عمل يحقِّق مصالح معينة لطرف، ويفرضها بمنطق وحق القوة، وليس بقوة الحق ؟ وهذا هو الموقف الغربي الذي شجبه غارودي.

وهنا نجد أنه من الضروري أن يخفِّف العرب والمسلمون من الدعوة إلى الحوار الإسلامي الغربي إلى الحوار الإسلامي الإسلامي، وتحديد المقصد من الحوار وأهدافه، ومدى إمكانيَّة تحقيق هذه الأهداف، ومدى استعداد وقدرة أطراف الحوار على الالتزام بنتائج الحوار وتفعيلها ؛ إذ لا يمكن أن يتم التحاور إلا بين أطراف على حد أدنى من النديَّة والتساوي في القوة والتكافؤ في الوزن، والاستعداد لقبول نتائج الحوار والالتزام بها. وما لم يصف المسلمون–ما بينهم–ويجدوا صيغًا للتفاهم تجعلهم قادرين على توحيد مواقفهم فإنهم لن يكونوا قادرين على الحوار الـمُجدي مع الغرب الأوربي، ولا مع الغرب الأمريكي، كذلك ينبغي تحديد أي النمطين من الحوار نريد ؟ أهو حوار الحضارات باعتبارها حضارات وأنساقًا ثقافية وفكرية وعقائدية، وقيمًا ومعايير ورؤية للعالم والإنسان والكون والحياة وخالق هذا الكون وواهب

الحياة ؟ أم هو حوار الحضارات بمعنى التفاوض بين نظم سياسية وتكتلات إقليمية وأحلاف عسكرية ؟ أم هو طلب للحوار من عاجز أو غير راغب بعمل شيء غير الجلوس على طاولة كلام، حتى لو انتهت بمزيد من التنازلات ؟

فالناظر في مفهوم الحضارات-كما يعبِّر عنها معظم مفكري الغرب-يجد تداخلا بين الفكري الثقافي الديني من ناحية، وبين السياسي الاقتصادي الاستراتيجي من ناحية أخرى، بصورة تجعل من الأبعاد الأولى محددات للتمايز بين الحضارات، ولكنها ليست غايات أو مقاصد في ذاتها، بل هي معطيات، وتحدد الفواصل والغايات فقط التي ينبغي أن تنصبَّ-أساسًا- على الأبعاد الاقتصادية والسياسية الاستراتيجية. وكأن الحوار ينبغي أن يتم بين المختلفين حضاريًّا-بالمعنى الثقافي الاعتقادي- بقصد تحقيق أهداف سياسيَّة واقتصاديَّة، وبهذا يتداخل الحوار مع التفاوض، ويتم اختزال مفهوم الحضارة في أبعاد السياسة الذرائعيَّة، وطبقًا لهذا المفهوم ظهرت معظم الكتابات التي تعلَّقت بهذا الموضوع، إن لم يكن كلها.

ومن هنا فإنَّه لابد من التأكيد على ما ينبغي أن نركِّز عليه من مفاهيم الحوار والحضارة وأنساقنا المعرفية. أما التفاوض السياسي فله مجاله البحثي وخطابه الفكري الخاص به، وكذلك له رجاله والمتخصصون فيه.

ثالثًا : أهم القضايا الأساسية لحوار الحضارات :

حتى يمكن الحديث عن حوار الحضارات بالمعنى الحقيقي، بعيدًا عن المصالح السياسية لقوى أو لدول معينة، وبعيدًا كذلك عن الانسياق وراء أطروحات قد لا تعبِّر عن حاجات إنسانية حقيقية، وحتى يمكن تأسيس هذا الحوار على قواعد معرفية مستقيمة ... ينبغي التركيز على القضايا التالية :

١- إنَّ مفهوم الحوار في هذا السياق ينصرف إلى المعنى المتعلق بالتحاور والاختلاف حول الأفكار والقيم والمعايير، المعرفية والمنهجية، وقواعد السلوك والثقافية، وإن هدف هذا الحوار هو الوصول إلى الحقيقة واعتبارها ضالة للمتحاورين كافة، ينبغي البحث والتفتيش عنها والانصياع لها عندما توجد وتعرف.

٢- إنَّ الحضارة ينبغي أن يتم تحديدها في قواعدها وأسسها الفكرية الثابتة، التي تتضمن رؤية للعالم، وتحدد الموقف من الإله والإنسان والكون والحياة، بما يعنيه ذلك من تحديد الموقف من المسخَّرات في الكون والبيئة، وكذلك الموقف من «الآخر» المنضوي تحت حضارة أخرى.

٣- إنَّ الاختلاف بين الحضارات سنَّة من سنن الله في الكون، ولا ينبغي ولا يمكن أن يُزال، ومن ثَمَّ لا ينبغي السعي لتذويب الفوارق والاختلافات ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود : ١١٩) ؛ وإن هذا الاختلاف والتعدد والتنوع غايته التعارف والتعايش وتبادل المنافع وتحقيق العمران.

٤- إنَّ لكل إنسان–ومن ثَمَّ لكل أمة وحضارة–حق الاختيار وحريته، ومن ثَمَّ ينبغي أن يحرر الإنسان من القهر والإجبار أو الإكراه بأيِّ طريق من الطرق، ومنها : تزييف الوعي أو الغزو الفكري أو غسيل الدماغ أو فرض النظم والأنساق الثقافية. ولابد أن يؤسَّسَ الاختيار على اقتناع الأمم والشعوب في تمتعها بحرية الاختيار ؛ لا اختيارات القادة وحدهم ولتحقيق مصالحهم السياسية، بل اختيارات الأمم نفسها.

٥- إنَّ الفواصل الحقيقية بين الحضارات تكمن في النظم المعرفية والأنساق العقائدية ورؤى العالم الأساسية، وإن المنجزات المادية والنظم الإدارية هي نتيجة لذلك، وليست أساسًا له، ومن ثَمَّ ينبغي أن يتم التحاور حول الأسس والفواصل الحقيقية، لا حول الثمرات والنتائج.

٦- إنَّ التعاون والتعايش والمحاورة بين المختلفين هي وسيلة للجنس البشري لتحقيق الأمن والسلام اللذين يحققان العمران، وليس التصارع والتقاتل، ومن ثَمَّ لا ينبغي النظر إلى «الآخر» على أنه عدو ينبغي قهره، ولكن على أنه إنسان مكرَّم ينبغي التعامل معه بصورة تحقق حريته وكرامته، ولابد أن تخضع للحوار مبادئ الأمم والحضارات التي تتنافى وهذه القواعد، لإدخال التعديلات التي تجعل الحوار ممكنًا.

٧- إنَّ رسالة الإسلام ليست رسالة قوميَّة، ولا عنصريَّة، ولا إقليميَّة، ومن ثَمَّ لا ينبغي تجسيدها في قوم محصورين أو إقليم معيَّن، ولكن لها تجليات متعددة ومتنوعة. فإذا نُظِرَ إلى الإسلام باعتباره حضارة تحاور الحضارات الأخرى ينبغي ألا تنحصر في قضايا الشرق الأوسط أو العالم العربي، ولكن لابد أن تشمل جميع الجماعات والمجتمعات الإسلامية في أي مكان، وتكون قواعد الحوار ممثِّلة للجذور المعرفية والأغصان الثقافية التي قامت هذه الحضارة عليها باعتبارها حضارة إسلامية.

٨- إنَّ الإسلام لم يعرف في تاريخه مفاهيم التصادم الحضاري أو الحروب الحضارية–كما هي عادة الغرب– ولكنه اقتصر فقط على الأبعاد العسكرية التي تقف عند حرب وقتال الجيوش. فلم يعرف تاريخ الإسلام المقاطعة الاقتصادية، أو حصار المجتمعات، أو تجويع الأطفال والنساء، أو منع الدواء عن المرضى، بل على العكس كان المسلمون طوال تاريخهم يقومون بتأمين طرق التجارة الموصلة لأوروبا. كذلك لم يعرف تاريخ الإسلام إبادة الحضارات أو الشعوب أو الثقافات، ولكنه عرف مبادئ إصلاح وتكييف الثقافات المختلفة، والحفاظ عليها وتطعيمها بالقيم العليا الحاكمة، أعني : التوحيد والتزكية والعمران ؛ ولذلك نجد التعدد في الملبس والمسكن والعمران صورة واضحة داخل حضارة الإسلام لا تكاد تجد لها مثيلا في أيّة حضارة أخرى، إذ المهم في حضارة الإسلام تحقيق وحدة العقيدة، وعنها تنبثق وحدة المشاعر والأفكار ثم المصالح.

٩- إنَّ حوار الحضارات يعني الاعتراف بأن هناك حضارات متعددة، وليست حضارة عالمية واحدة نسخت سائر الحضارات السابقة عليها، ومن ثَمَّ فلابد من إعادة النظر في المناهج والنظريات والعلوم الناتجة عن حضارات عالمنا المعاصر كلها، وليس فقط ما ينتج عن الحضارة العالمية المركزية، التي يزعم البعض أنَّها خلاصة التطور البشري ونهايته. وطالما أنَّ الحضارات الأخرى لم تزل قائمة وينبغي أن تدخل في حوار مع الحضارة المركزية، لابد من التخلي عن تلك الصراعات الفكريَّة، مثل: «نهاية التاريخ»، سواء أجاءت من هيجل أو تلامذته أو من فوكوياما. وكذلك لابد من تصحيح مسار تلك العلوم ؛ لإن العلوم والمناهج والنظريات ستكون موضوعًا للتحاور، ومن ثَمَّ لا ينبغي الانطلاق من معطيات الحضارة الغربية قاعدة أساسيَّة مسلَّمة، وبذلك يكون من الضروري تطوير العلوم والمناهج والنظريات الخاصة بحضارتنا الإسلامية النابعة من مصادرنا المعرفية المتمثلة في القرآن الكريم وبيانه من السُنَّة المطهرة، ثم تطوير المناهج للتعامل مع تراثنا ومع العلوم النابعة من الحضارات الأخرى، حتى نستفيد منها دون الوقوع في خصوصياتها وتحيزاتها التي تتعاكس مع أنساقنا المعرفيَّة والقيميَّة والعقائديَّة و: ﴿إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الإنفال:٧٣). فحوار الحضارات أكبر من نداء يُطلق، أو كلمة يؤذِّن بها مَنْ يشاء، أو شعار يُرفع، أو مؤتمر للكلام يُعقد، إنها–معرفيًّا–أعمق وأصعب وأشدُّ من ذلك.

تلك هي أهم القضايا المعرفية التي ينبغي أن ينصرف الاهتمام إليها قبل الانخراط في حوار حقيقي للحضارات، وبدونها سيكون الأمر تفاوضًا سياسيًّا ينبغي أن يوكل إلى رجال السياسة والدبلوماسية، وليس لأرباب القرطاس والقلم، فهل من سبيل لقيام حوار إسلامي يُمكن أن يُعاد به بناء مفهوم «الأمة القطب» ولو بعد حين ؟ ! نرجو ذلك ونتمنَّاه، والله وليُّ ذلك والقادر عليه.

د. طه جابر العلواني